البهاء زهير

شاعر الحب والحماسة

بقلم

الدكتور محمد عرفة المغربي

مدرس الأدب والنقد

حفل عصر الأيوبيين بعديد من الشعراء فى فنون الشعر وأغراضه المختلفة وبخاصة شعر الحماسه الذى يصور الحروب والمعارك ويحث على متابعة الجهاد ودوام الاستعداد له ، ويصور أثر الانتصار فى نفوس الناس كما أنه يدافع عن المنهزمين ويلتمس لهم المعاذير ويفتح أمامهم باب الأمل فى معارك تالية يثأرون بها من عدوهم ويحققون النصر المبين على أعداء الاسلام والمسلمين .

ذلك أن قيام دولة الأيوبيين بواجب الدفاع عن الأسلام وتصديها فى بسالة وإقدام للحملات الصليبية الغازية ، وانتزاعها القدس الشريف من أيديهم عام ٥٨٣ هـ كان له أثر بعيد فى نفوس الشعراء وفتح أمامهم باب القول واسعاً ، وظهر عشرات الشعراء المبدعين كابن سناء الملك وابن النبيه وابن مطروح والبهاء زهير والقاضى الفاضل وغيرهم من أعلام العصر ممن نجد ذكرهم فى خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصبهانى ولم يكن شعر الحماسة الغرض الوحيد فى فنون القول لدى هؤلاء الشعراء ، ذلك أن الحروب قد أججت عواطفهم فقالوا الشعر فى أغراضه كلها كما يتضح ذلك من حديثنا عن شاعرنا البهاء زهير .

وهو زهير بن محمد بن على بن يحى . . . المهلبى الازدى ، وكنيته أبو الفضل وقيل أبو العلاء ولقبه بهاء الدين ويرتفع نسبه الى المهلب بن أبى صفرة القائد المعروف بجهاده للخوارج فى دولة بنى أميه فهو من قادتهم الشجعان وأمرائهم المعروفين ، وكان مولده بوادي نخلة بقرب مكه سنة إحدي وثمانين وخمسمائة وقضى طفولته فى الحجاز ثم إنتقل الى قوص فى تاريخ غير محدد ولكن يبدو أنه انتقل فى أول شبابه لأن صاحب النجوم الزاهرة يقول : وربى بصعيد مصر بقوص (١) ، وهى عبارة تدل على انتقاله فى مرحلة التربية والتهذيب وتلك مرحلة مبكرة ولا ريب .

وقد يدل شعره على أنه عاش فى الحجاز سنوات الصبا ، وأن معالم تلك البقاع علقت بذاكرته وبخياله فهو يقول :

سقى الله أرضا لست أنس عهودها ∴ وياطول شوقى نحوها وحنينى

بلاد إذا شارفت منها نجومها ∴ بدا النور فى قلبى وفوق جبينى

منازل كانت لى بهن منازل ∴ وكان الصبا إلفى بها وقرينى

تذكرت عهداً بالمحصب من منى ∴ وما دونه من أبطح وحجون

وأيامنا بين المقام وزمزم ∴ وإخواننا من وافد وقطين

زمان عهدت الوقت لى فيه واسعاً ∴ كما شئت من جدبه ومجون(٢)

وصور المكان لاتعلق بالنفس إلا إذا عاش فيه الانسان سنوات غير قليلة.

---

(١) النجوم الزاهرة حـ ٧ ص ٦٢

(٢) ديوانه ص ٢٧٥ طبعة دار المعارف بمصر .

على أنه يمكن أن يحمل هذا الشعر على أنه خيال استحضره الشاعر ، وصورة الحجاز والحصب ومنى والمقام وزمزم أقرب الصور إلى خيال كل مسلم ولا سيما في عصر الشاعر الذي أذكت فيه الحروب الصليبية العاطفة الاسلامية لدى المسلمين جميعاً .

وكانت قوص — في ذلك العهد — مدينة كبيرة حافلة بالحركة والنشاط التجاري والعلمي والحربي ، وكان بها المكتبات العامرة ؛ وكانت مركزاً هاماً من مراكز الثقافة في ذلك العهد ، فقد هدد الصليبيون طرق التجارة بين الحجاز والشام ، وكانت إمارة الكرك الصليبية مبعث خطر دائم وشر مقيم حتى على قوافل الحجيج ، ومن هنا كانت قوص ذات أهمية بالغة إذ هي محط مهم للسلع المنقولة من ثغر عيذاب على البحر الاحمر إلى مصر وهي باب مكة واليمن والنوبة وسواكن (١)

ومن هنا كانت محط أنظار العلماء ، ووجد فيها البهاء زهير مبتغاه من علم وثقافة وشهد له مؤرخوه بأنه « قرأ الادب وسمع الحديث ، وبرع في النظم والنثر والترسل » (٢) .

وقطعاً تأتى له ذلك في مدينة قوص التي كانت حافلة بحلقات العلم والادب .

وتحرج فيها الشاعر ابن مطروح الذي وصف هزيمة لويس التاسع ملك فرنسا وأسره في المنصورة في قصيدته الطريفة :

قل للفرنسيس إذا جئته ∴ مقال صدق من قؤول نصيح
دار ابن لقمان على حالها ∴ والقيد باق والطواش صبيح

---

(١) ترجمة البهاء زهير تأليف الاستاذ مصطفى السقا وعبد الغني المشاوى ص ٢٣ .

(٢) النجوم الزاهرة حـ ٧ ص ٦٢ .

وكان صديقا لشاعرنا وبينهما مساجلات ومداعبات .

نهج البهاء زهير نهج شعراء العربية ـ أو أكثرهم ـ فمدح أصحاب الشأن مثل حاكم قوص مجد الدين إسماعيل اللمطي ؛ وكانت العلاقة بينهما وثيقة إذ كان نسب مجد الدين منتهياً إلى قبائل اليمن كما ينتهي نسب الشاعر مما وثق العلاقة بينهما ؛ وجعل الشاعر يمدحه بأكثر من قصيدة . (١)

ثم مدح العادل أخا صلاح الدين بقصيدة أنشده إياها بقلعة دمشق عام ٦١٢ وهي نقلة كبيرة في حياة الشاعر ذلك أن العادل كان أقوى ملوك عصره ووارث إمبراطورية أخيه صلاح الدين بعد أن تفرق أبناؤه وأغرى العادل كلا منهم بأخيه حتى يصفو له الجو آخر الأمر وقد كان .

وفيها يقول :

أخو يقظات ليس يعرف طرفه غرارا سوى ما يحتويه حسامه

يقصر عنه المدح من كل مادح ولو كان من زهر النجوم نظامه

فيا ملك العصر الذي ليس غيره يرجى ويخشى عفوه وانتقامه (٢)

وهو شعر يدل على أن قائله مضطرب لم يتمكن من صناعته بعد، ولم يطمئن إلى بضاعته ، ولم يزل ما بينه وبين ممدوحه كما تأتى له ذلك بعد .

واتصل بالكامل بن العادل ، وسجل انتصاره في دمياط على الصليبيين سنة ٦١٨ هـ على أن الملك الصالح نجم الدين أيوب كان أكثر من اتصل بهم

---

(١) أنظر ديوان الشاعر ص ٤٣ ، ٥٥ ، ٧٠ ، ٩٧ .

(٢) أنظر ديوانه ص ٢٣٣ .

الشاعر من الملوك إتصالا قوياً إذ صار شاعره ، وانقطع إلى مدحه ، وحينما حبس الصالح فى سجن الناصر داود بالكرك أقام زهير على الوفاء له وأطلق سراح نجم الدين عام ٦٣٧ هـ فولى البهاء زهيرا ديوان الانشاء . . . وظل كاتبه الذى ينتدبه إلى مهام خطيرة ويرسله برسائله إلى الملوك ، ولكنه صرفه عن خدمته عام ٦٤٧ هـ فحاول البهاء أن يوثق صلته ببعض ملوك الشام الايوبيين ولكنه لم يوفق وعاد الى مصر وانقطع أو كاد فى داره حتى وافاه أجله سنة ٦٥٦ هـ (١) بعد حياة حافلة بالأحداث والاسجاد والرحلة والمنصب الخطير.

ويكاد يجمع مؤرخوه على انه كان ذا خلق كريم ، وكانت أخلاقه من أسباب علو قدره عند الملوك والحكام .

قال ابن خلكان : كنت أود لو اجتمعت به لما كنت أسمع عنه، فلما وصل اجتمعت به ، ورأيته فوق ماسمعت عنه من مكارم الأخلاق ، وكثرة الرياضة ودماثة السجايا ، وكان متمكنا من صاحبه — يعنى نجم الدين أيوب — كبير القدر عنده لايطلع على سره الخفى غيره،ومع هذا كله فإنه كان لايتوسط عنده إلا بالخير ، ونفع خلقاً كثيراً بحسن وساطته وجميل سفارته (٢) .

إذن فقد شاع بين الناس ذكره وفضله حتى سمع عنه ابن خلكان معاصره وود الاجتماع به ، فلما لقيه وجده أفضل مما كان يتصوره ويسمع عنه .

وقد ذكرت أنه ظل على وفائه للملك الصالح نجم الدين حينما اعتقل فى قلعة الكرك ، ولم يتغير مع من تغير عليه ، ولم يتصل بأعدائه ، وقد تركه كثيرون منهم بدر الدين قاضى سنجار ، وكان أخص أصحابه وصاروا إلى دمشق ، وقد أيسوا من أن يقوم بعدها للصالح نجم الدين قائمة ، ولكن البهاء ظل وفياً حتى خرج الصالح من معتقله وصعد إلى عرش مصر فصحبه معه وعرف له قدره وأعلى منزلته (٣) .

---

(١) تراجم رجال القرنين السادس والسابع ص ٢٠١

(٢) وفيات الأعيان .

(٣) السلوك حـ ١ ص ٢٨٨ .

وإلى جانب الوفاء ، وحب الخير للناس فقد كان من صفاته الإيثار والمروءة فقد كتب كتاباً عن نجم الدين إلى ابن عمه الملك الناصر أمير الكرك .

وكتب نجم الدين بخطه بين أسطر الكتاب وهو يعرض عليه « أنت تعرف قلة عقل ابن عمي وأنه يحب من يعظمه فما كتب له غير هذا الكتاب » وأرسل الكتاب إلى البهاء زهير فأعطاه لفخر الدين إبراهيم بن لقمان وأمره أن يقف عليه ويختمه فختمه وأرسله إلى الناصر داود ولم يتأمله وحينما سأل عنه بهاء الدين أخبره أنه سيره مع نجاب فقامت قيامة نجم الدين وغضب على البهاء زهير مع أن التقصير كان من فخر الدين بن لقمان ولكن البهاء نسبه إلى نفسه لمروءته وإيثاره وأبعد عن الديوان بسبب ذلك (١) .

على أن دراسة شعره تصوره عفيفاً رضياً صادق الوطنية، ألوفاً يحب الناس ويحبونه وسأ لتقى بإيراد بعض الأبيات الدالة على ذلك .

قال يشكو غربته :

أيام مصـر ليتها فديت بأيامي البـواقي
أحبابنا ماذا لقيـت من البعاد وما ألافى
لو تشرفون رأيتم من مصر نيران اشتياقي

فهو يفدى أيامه فى مصر ببقية عمره ، ويشكو مايلاقيه فى غربته ، ويخبر أنهم لو أشرفوا لرأوا على البعد مايلاقيه من آلام .

ثم يقول :

أ أرحل من مصـر وطيب نعيمها فأى مكان بعدها لى شائق
وأترك أوطاناً ثراها لنـا شق هو الطيب لاما ضمنته المفارق
وكيف وقد أضحت من الحسن جنة زرابيها مبثوثة والنمارق

---

(١) النجوم الزاهرة حـ ٦ ص ٣٣٥

ثم يقول :

ومن خلقي أني ألوف وأنه يطول التفافي للذين أفارق
وأقسم ما فارقت في الأرض منزلا ويذكر إلا والدموع سوابق

على أن من أهم أغراضه الشعرية الغزل والحماسة ، والغزل فن شعري قديم عرفه الشعر العربي في عصوره كلها ، وإشتهر الحجاز في عهد بني أمية بظهور الشعراء الغزليين أمثال عمر بن أبي ربيعة والعرجي وجميل بثينة وغيرهم من الشعراء

وقد أثار الكاتبون عن الشاعر زهير مشكلة تتعلق بصدقه في غزله ، فبينما يرى « بالمر » ناشر ديوانه في كمبردج سنة ١٨٧٦ أنه صادق في غزله ، يذهب الدكتور شوقي ضيف أنه متصنع في غزله ويورد أبياته :

أذكر اليوم سليمى وغداً أذكر زينب
لي في ذلك سر يرقه للناس خلب

كما يورد قوله :

وإن قلتم أهوى الرباب وزينبا صدقتم سلوا عني الرباب وزينبا
ولكن فتى قد نال فضل بلاغة تلعب فيها بالكلام تلعبا (١)

والحق أن هذه مشكلة هينة لا تعنينا كثيراً ، فنحن حين ندرس الأدب لانهتم بالواقع ، ولانجري وراء التجربة الواقعية ، إذ يكفي أن ينفعل الشاعر أو الأديب بتجربته ويستغرق فيها وكأنه عايشها تماماً ليعبر عنها التعبير المؤثر الجميل .

ولنترك الكتاب يختلفون وليكن ديوان الشاعر منارتنا ونحن نتحدث عن غزله .

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي للدكتور شوقي ضيف ص ٤٩٨

وأول مانلاحظ فى ذلك أن ديوانه يحفل بالغزل ويكاد يستغرق الغزل ديوانه كله لولا قصائد فى الحماسة وأخرى فى الهجاء لاتقف أمام هذا التراث الغزلى الغزير .

ويلفتنا من غزله عفته وغيرته فهو بعيد عن الفحش ، وعن التصريح مما يجعل شعره أدنى إلى النفوس وأدعى إلى القبول ، ويباعد مابين مذهبه ومذهب أبى نواس وبشار وصريع الغوانى من شعراء العصر العباسى .

وتبلغ العفة عنده فى بعض الأحيان مرتبة الشعراء العذريين وحتى ليذكرنا بجميل بثينة إذ يقول :

وإنى لأرضى من بثينة بالذى	لو ابصره الواشى لقرت إبلابله
بلا وبألا أستطيع وبالمنى	وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى	أواخره لانلتقى وأوائله

واستمع إلى شاعرنا يصور عفته وغيرته فيقول :

كلفت بشمس لاترى الشمس وجهها	أراقب فيها ألف عين وحاجب
ممنعة بالخيل واللوم والقنا	وتضعف كتبى عن زحام الكتائب
ولو حملت عنى الرياح تحية	لما نفذت بين القنا والقواضب
وما نلت منها نائلا غير أننى	أعلل نفسى بالأمانى الكواذب
أغار على حرف يكون من اسمها	إذا مارأته العين فى خط كاتب (١)

فهى ممنعة عن حولها وماحولها حتى لاتصل الرياح إليها بتحيتة ثم هو يغار على حرف يكتب من اسمها وتراه العيون مخطوطاً ...

---

(١) ديوانه ص ٢٩

ويكرر هذا المعنى وهو عدم ذكر إسم محبوبه .

وحبيبي هـــو الذى لا أسمي ه على ما استقر من عاداتى
ويقولون عاشـــق وهو وصف من صفاتى المقومات لذاتى

ويؤكد هذا المعنى مرة أخرى فيقول :

لى حبيب لا يسمى وحديث لا يفسر
تعب العاذل فى قصـ ـة وجدي وتحير
آه لو أمكننى القو ل لعلى كنت أعذر
لست أرضى لحبيبي ∴ أنه للناس يذكر

وتصل غيرته إلى ذروتها حين يقول :

أنا فى الحب غيور ذاك خلقى لا عدمته
أبصر الموت إذ أبـ ـصر غيرى من عشقته

فمجرد رؤية من يعشه تفزعه إلى هذه الدرجة وتصل به إلى الموت .

ثم هو يعف عن ذكر أوصاف محبوبه ويبعد عن الإفصاح فى ذلك فيقول :

... ... ∴ وشادن فيه من التية خفر
حلو الثنايا والتثنى إن خطر ∴ فى الجد والهزل جميعاً قد مهر
وفيه أشياء وأشياء أخر ∴ ... ...

فهو يعجب بحياء محبوبه، ويوجز مافيه من محاسن مكتفياً بأنها أشياء وأشياء

ويعلل عدم ذكر اسم محبوبه فى بعض الأبيات بأنه خوف الوشاة ، إلى جانب الغيرة .

وأنزه اسمك أن تمر حروفه من غيرتى بمسامع الجلاس
فأقول بعض الناس عنك كنايه خوف الوشاة وأنت كل الناس
وأغار إن هب النسيم لأنه مغرى يهز قوامك المياس

وتكفيه الإشارة ، ولذا لايخشى الرقيب فيقول :

أنا لا أبالى بالرقيـ ب ولا بمنظره القبيح
غمز الحواجب بيننا أحلى من القول الصريح

ولعل اجتزاءه بالإشارة مبعثه العفة والغيرة التى ذكرها واعتز بها كثيراً .
وهو فى موضع آخر يجعل خوف الوشاة علة رمزه فيقول :

ماذا تظن بعاشق يصفر حين يراك حائز
صب بأسرار الهوى خوفاً من الواشين رامز
فأنامل أبداً تشيـ ـر وأعين أبداً تغامز

ويذكر الرمز مرة ثانية حين يقول :

وإن قلت وأشوقاه للبان والحمى .. فإنى عنكم بالكناية رامز

وقد يصل به العشق إلى البكاء وسفح الدمع غزيراً أمام محبوبته أوفى موقف الوداع كقوله :

وغادة كأنها .. شمس الضحى تألفت
كم شرقت بدمعها .. عينى لما أشرقت

ومثل قوله :

وقفت أبكى وراحت وهى باكية تسير عنى قليلا ثم تلتفت

وتراه فى بعض الحالات يتودد إلى من يحب ، ويصل تودده إلى درجة التذلل فيقول :

سيدى قلبى عندك سيدى أوحشت عبدك
سيدى قل لى وحدثنى متى تنجز وعدك
أترى تذكر عهدى مثل ما أذكر عهدك
أم ترى تحفظ ودى مثل ما أحفظ ودك

ولكنه رغم بكائه وتوددة يعتز بأخلاقه ولا يتخلى عن مروءته ونجدته أمام من يحب .

وإنى وإن هز الغرام معاطفى لما ازددت إلا نخوة وتعربا
أتيه على كل الأنام نزاهة وأشمخ إلا للصديق تأدبا

فلم يكن الشاعر ضعيفاً أمام عشقه ولم يرفيه ماينتقص مروءته ونخوته، بل أنه فى بعض شعره يفخر بأنه صاحب معجزات فى الحب وأنه لا منافس له فيه حيث ارتفعت رايته استمع إليه يقول :

أنا فى الحب صاحب المعجزات جئت للعاشقين بالآيات
كان أهل العزام قبلى أمين حتى تلقنوا كلماتى
فأنا اليوم صاحب الوقت حقاً والمحبون شيعتى ودعاتى
ضربت فيهم طبولى وسارت خافقات عليهم راياتى
مذهبى فى الغرام مذهب حق ولقد قمت فيه بالبينات

ونحس حين نقرأ هذه القصيدة وهى طويلة — أنه متأثر بالتصوف الذى شاع فى عصره وأنه يستعير أشياء بعيدة عن الغزل ، وأنه قد أخذ من التصوفة كلمات واصطلاحات مثل : صاحب المعجزات ، والآيات ، والتلقين ، وصاحب الوقت والشيعة والدعاة ، وضرب الطبول ، وسير الرايات ، ولقد يراودنا الشك أن الشاعر كان من المتصوفة أو أنه ضرب بسهم فى الزهد وإلا فما هذا الذى يعبر عنه ويصوره فى قصيدته ؟

ولكننا نجده فى نفس القصيدة يعبر عن ليالى الأنس واللذات ..
وليالى فى الجزيرة والجيـ ـزة فيما اشتهيت من لذاتى

كما تعبر عن اقباله على اللذات فى أكثر من قصيدة كقوله فى قصيدة طويلة :

دعينى واللذات فى زمن الصبا ∴ فان لامنى الاقوام قيل صغير

ومن هنا نقطع أنه لم يكن من المتصوفة فى شىء وإنما هو الغزل يعتز به الشاعر ويستعير من المتصوفة مايعتزون به من رايات وطبول.

أما ذوقه فيمن يحب فانه ذوق شاعر متقلب فتراه يعشق ألواناً وأشكالا من النساء مابين سمراء وبيضاء وما بين طويلة وقصيرة وما بين مبصره وعمياء وتراه يعلل ذلك كله تعليل شاعر إن كان الوصف بالشاعر يعنى من المنطق والدليل .

وإستمع إليه يمتدح البيض فيقول :

ألا إن عندى عاشق السمر غالط ∴ وأن الملاح البيض أبهى وأبهج

وإنى لأهوى كل بيضاء غادة ∴ يضىء بها وجه وثغر مفلج

وحسبى أن أتبع الحق فى الهوى ∴ ولا شك أن الحق أبيض أبلج

ويكرر المعنى أكثر من مرة فى ديوانه ولكنه يعود فيمدح السمر ويعلل ذلك أيضاً كما علل ميله للبيض من قبل :

فيقول :

السمر لا البيض هم ∴ أولى بعشق وأحق

وان تدبرت مقالا ∴ لى منصفاً قلت صدق

الشمس فى لون اللمى ∴ والبيض فى لون البهق

وهكذا نجد شاعرنا الغزل متغيراً الميول متحولا من لون الى آخر وهو

فى هذا يذكرنا بشعراء الغزل اللاهين فى دولة بنى أمية من أمثال عمر بن أبى ربيعه الذي يحفل شعره بعديد من أسمـــاء المحبوبات ولو حاولت أن أستقصى مذهبه فى الغزل لطال الحديث ولكنى أجتزىء بهذا القدر ؛ وأحيـل الى ديوانه الذى يضم عشرات القصائد فى هذا الفن الجميل .

أما شعره فى الحماسة فقصوره أصدق تصوير قصيدته فى موقعـة دميـاط سنة ٦١٨ هـ فى عهد الكامل ابن الملك العادل أخى صلاح الدين .

وكانت الحملة الصليبية السادسة قد وصلت الى عكا ولـكن بعد مناوشات قرر زعماؤها التحول إلى مصر ومحاربة المصريين أولا ، لأنهم رأوا تغلب صلاح الدين عليهم فى فلسطين بعد فتح مصر ، فقصدوا دمياط فى سنة ٦١٥ وهـم فى نحو سبعين (٧٠) ألف فارس وأربعمائة راجل ؛ ومات العادل قبل أن يصل من الشام الى مصر لملاقاة الاعداء ، وكان قد أرسل جنودا كثيرين للدفاع عن مصر واستطاع الافرنج أن يدخلوا دمياط سنة ٦١٦ هـ بعد حصار استمر نحو سبعة عشر شهراً ، وطلب الكامل الصلح على أن يرد على الافرنج القدس وعسقلان وطبرية وغيرها من مدن الشام ولكنهم أبوا وساروا قاصدين القاهرة ، وفتح المصريون عليهم الترع وأحدق بهم عساكر الكامل ، فطلبوا الصلح بعد أن عاينوا الهلاك على أن يتسلموا الرهائن ويسلموا دمياط فلبى الكامل دعوة الصلح لشدة حرصه على دمياط ، ولو أقاموا يومين لأخذ برقابهم جميعاً . (١)

وكان لهذه الموقعة أثر بالغ فى نفوس شعراء الحماسة ولا غرو فهى موقعة حاسمة ، ولو تخيلنا أن تلك الحملة لم تلقه تلك النهايه ، وقدر لها النجاح لتغير الحال كثيراً فى مصير الحروب الصليبية وفى مصير آل أيوب جميعاً ، ومن هنا كان إلتفاف الايوبين حول الكامل ملك مصر ، وقد جاء المعظم عيسى من الشام ، كما حضر الاشرف موسى من ولايته بالمشرق ، لأنهم قدروا أن دمياط ذات موقع لهم يتحكم فى مصر وفى مدن الشام الساحلية أيضاً ، ولهذا خلدها

---

(١) الكامل أحداث سنة ٦١٦ بتصرف والنجوم الزاهرة الجزء السادس.

الشعراء ومنهم ابن عنين وابن النبيه ، والحلى والبهاء زهير وغيرهم وتعتبر قصيدة البهاء زهير فى تلك الموقعة من عيون شعره واستمع إليه يسجل الموقعة ويبين فرحة المسلمين واندحار الكفار ، ولا غرور فهى نعمة لا يفى بها الشكر ومهما بذل فيها من نفوس فهى أكبر وأجل ، ولهذا فعلى الشعراء أن ينظموا شعرهم ، ولا عذر لهم إن قصروا فى البيان فيقول :

بك اهتز عطف الدين فى حلل النصر ∴ وردت على أعقابها مـلة الكفر

فقـد أصبحت والحمد لله نعمة ∴ يقصر عنها قـدرة الجـد والشكر

يقل بها بذل النفـوس بشـارة ∴ ويصغر فيها كل شىء من النذر

ألا فليقل من شاء من هو قائل ∴ ودونك هذا موضع النظم والنثر

وجدت محـلا للمقـالة قائـلا ∴ فمالك إن قصرت فى ذاك من عذر

وينتقل إلى الكامل فيشيد به ويدعو له ويذكر قوته فى حالى رضاه وسخطه وفخر الأيام به ، ولا غرور فله أياد بيضاء على الناس وصارمه المقطم شامخاً وارتفع ذكره حتى وصل إلى الملأ الأعلى فليهنأ بما أعطاه ربه من نصر يحسب له يوم القيامة :

فك الله من مولى إذا جاء أوسطاً ∴ فناهيك من عرف وناهيك من نكر

تعيش بك الأيام فى حلل الصبا ∴ وترفل منه فى مطارفه الخضر

أياديه بيـض فى الورى موسـومة ∴ ولكنها تسعى على قـدم الخضر

ومن أجله أضحى المقطم شامخاً ∴ ينافس حتى طور سيناء فى القـدر

فيا ملـكا ضاهى الملائك رفعـة ∴ فى الملأ الأعلى له أطيب الذكر

يهنيك ما أعطـاك ربـك أنهـا ∴ مواقف هن الغر فى موقف الحشر

ويتحدث عن النصر وأثره ؛ وتبدوا نظرة الشاعر صادقة ، ويتخيل مالم يقع ، ويخبر أن بغداد قد تفزع لو إنتصر الافرنج ، ولهذا يحرص على تبليغ هذه البشرى لمكة وللمدينة وللرسول الكريم :

وما فرحت مصر بذا الفتح وحدها ∴ لقد فرحت بغداد أكثر من مصر

فلو لم يقسم بالله حق قيامه ∴ لما سلمت دار السلام من الذعر

وأقسم لولا همة كاملية ∴ لخافت رجال بالمقام وبالحجر

فمن مبلغ هذا الهناء لمكة ∴ ويثرب تنهيه لصاحب القبر

فقل لرسول الله ان سميه ∴ حمى بيضة الاسلام من نوب الدهر

هو الكامل المولى الذى إن ذكرته ∴ فيا طرب الدنيا ويافوح العصر

به إرتجعت دمياط قسراً من العدا ∴ وطهرها بالسيف والملة الطهر

ورد على المحراب منها صلاته ∴ وكم كان مشتاقا الى الشفع والوتر

وأقسم أن ذاقت بنو الاصفر الكرى ∴ فلا حلمت إلا بأعلامه الصفر

فالدنيا تطرب إذا ذكر اسم الكامل بعد جهاده فقد ارتجع دمياط من الاعداء قسراً ، وطهرها بالسيف وبملة الاسلام الطاهرة ورد الصلاة فى محرابها وكان مشتاقاً إلى إقامة الصلاة شفعاً ووتراً وقد أصاب الافرنج بالرعب والفزع حتى فى أحلامهم وهم نائمون ، أما قوة الكامل ووسائل إنتصاره فيقف الشاعر عندها فى إعتزاز معددا إياها فى خيلاء .

سددت سبيل البر والبحر عنهم ∴ بسابحة دهم وسابحة غمر

أساطيل ليست فى أساطير من مضى ∴ بكل غراب راح اقنص من صقر

وجيش كمثل الليل هولا وهيبة ∴ وان زانه مافية من أنجم زهر

وكل جـــواد لم يكن قط مثله ∴ لآل زهـــير لا ولا لبنى بـــدر

وباتت جنـــود الله فوق ظهوامر ∴ بأوضاحها تغـنى السراة عن الفجر

فـــما زلت حتى أيـد الله حـزبه ∴ وأشرق وجه الارض جذلان بالنصر

فرويت منهم طامى البيض والطما ∴ وأشبعت منهم طاوى الذئب والنسر

وجاءت ملوك الروم نحوك خضعاً ∴ تجرد أذيال المهـــانة والصغـر

وقد جمع الشاعر الكامل كثيراً من أسباب القوة فقد سد عليهم البر والبحر بأساطيله القوية وجيوشه الوافرة وكانت جيادة عربية أصيلة ، ومازالت المعركة حتى أيد الله حـزبه وأشرقت الارض ، ونالت من الأعـداء السيوف والرماح وأكلت الذئاب والسباع من جثثهم حتى شبعت ، وجاء ملوكهم خاضعين أما دمياط فان الشاعر يتحدث عنها حديث المحب ، ويجعلها فى موضع النحـر من من قبلة الاسلام أما يوم فتحها فهو يوم من أيام الاسلام .

ولنقف إلى جانب بدر وحنين . . . ومن شاركوا فيه فقد جمعوا بين الاجر والغنيمة ، أما الشاعر فانه حريص على استماع حديث الفتح ، ويستعيده فى سرور ويقوم عنده مقام الشراب البارد عند الظمأ ومقام الزاد فى البلد القفر . . .

كفى الله دمياط المـــكاره إنها ∴ لمن قبلة الاسلام فى موضع النحر

وما طاب ماء النيـــل إلا لأنه ∴ يحل محل الريق من ذلك الثغـر

فلله يوم الفتـــح يوم دخولها ∴ وقد طارت الاعلام منها على وكر

لقـــد فاق أيام الزمان بأسرها ∴ وأنسى حديثاً عن حنين وعن بدر

وياسعد قوم أدركـوا فيـه حظهم ∴ لقـد جمعوا بين الغنيمة والاجر

وإنى لمرتـــاح إلى كل قادم ∴ إذا كان من ذاك الفتوح على ذكـر

فيطربني ذاك الحديث وطيبـــه ... ويفعل بي ماليس في قدرة الخمر

وأصغي إليهم مستعيداً حديثه ... كأني ذو وقر ولست بذي وقر

يقوم مقام البارد العذب في الظمأ ... ويغني عن الأزواد في البلد القفر

وهكذا رأينا شاعرنا في أبياته يشهد بالموقعة ويجعلها فتحاً رائعاً، ويرفع منزلتها ويعمق أثرها في العالم الاسلامي كله والقصيدة كلها في الفتح لم تخرج عنه مما يدل على احتفال الشاعر بالمناسبة إلى حد كبير.

على أن شاعرنا له في الحماسة قصائد عديدة أخص منها قصيدته في ابن اللعطى حينما خرج لقتال من يعيثون في الأرض فساداً، ويقطعون سبل الحجاج في ثغر عيذاب من قبائل البجا وانتصر عليهم وأمن أهلا والمسافرين بها فسجل البهاء تلك الموقعة قائلا:

غدت وقعة قد سار في الناس ذكرها ... بمـــا فعلته بالعدو ذكورهـــا

فأضحى بها من خالف الدين خائفاً ... وضاق على الكفار منها كفورها

وأعطى قفاه الحد ربي ملولياً ... بنفس لمـــا تخشاه منك مصيرها

مضى قاطعاً عرض الفلا متلفتاً ... تروعـــه أعـــلامها وطيورها

وليس عدوا كنت تسعى لأجله ... ولكنها سبـــل الحجيـــج تجيرها

لقـــد أمنت بالرعب منـــه بلاده ... قصدت أعاديها وشدت ثغورها

وأضحى له يولي الثنـــاء غنيها ... وأمسى له يعطى الدعاء فقيرها

وشعر البهاء في الحماسة فيه قوة وجزالة بينما شعره في الغزل سلس رقيق وكأنه يحرص على أن يناسب الإسلوب الموضوع، ويشاكل اللفظ معناه.

على أنه ينبغى أن أشير إلى سمة من سمات شعر البهاء زهير وهى تمثيله الروح المصرية .

فهو يجنح فى السهولة فى أغلب شعره ولا يخرج عنها إلا قليلا والسهولة سمة من سمات الروح المصرية إكتسبها الشعراء والكتاب من إعتدال طبيعة مصر وجريان نيلها سلساً مطواعاً ومن إمتداد أرضها فى إستواء وانبساط فلا جبال ولا وهاد .

وقد يبالغ فى ذلك فيستعمل أساليب عامية وشعبية ويجلب على نفسه حملات النقاد فى عصره حتى يسجل شعره ذلك حيث يقول :

بروحى من أسميها بســـتى فتنتظرنى النجاة بعين مقــتى

يرون بأننى قـــد قلت لحنا وكيف وإننى لزهــير وقتى

ولكن غادة ملكت جهــاتى فلا لحن إذا ماقلت ستى (١)

ويظل حتى الان هدفا للنقاد بين ناقد ومدافع . (٢)

وهو يميل الى الفكاهة والدعابة ، ويسخر من الثقلاء المتزمتين كشأن المصريين مثل قوله :

وجـــليس حـــديثه « « للمسرات طارد

مثل ليـــل الشتاء فم « « و طويل وبارد

ثم هو مصرى يحب مصر ويتشوق إليها فى غربته وقد أوردت مايدل على ذلك من قبل .

---

(١) ديوانه ص ٤٩

(٢) الفن ومذاهبه ، وترجمة البهاء زهير للاستاذ مصطفى السقا ، ودراسات فى الشعر فى عصر الايوبيين للدكتور محمد كامل حسين .

والتدين فى أعماق المصريين ومن هنا رأينا الشاعر يعبر عن تمسكه بالدين فيصنع أبياتاً ينشدها المؤذنون فى الأسحار ؛ كما يقف موقف الوعظ فى قصيدة أخرى ذكر منها بالموت وحذر من الدنيا .

وهو مصرى بثقافته العربية الاصلية التى جمعت أخبار العرب فى جاهليتهم وإسلامهم ، كما وعت أمثالهم واصطلاحات النحو والفقه وغيرها من العلوم العربية ، ومعروف أن المصريين حريصون على الاتصال دائماً بالماضى ، وعدم الانفلات نحو المستقبل إلا فى إعتدال وقصد . ولن أستطيع أن أمثل لذلك وديوانه حافل بالنماذج العديدة لكل ماذكرت .

وما أحوج الدارسين الى الاقبال عليه ومطالعته والتزود منه بين حين وحين .